ربي، كيف عصيتك؟!

الجزء السادس: كيف أتخلص من عبء الذنوب التي علي؟

كتابة: الأخ/ عبد السِتّير

التدقيق اللغوي: هشام عبده الروبي؛ عبد الرحمن غريب علي.

مراجعة: الشيخ/ خ.

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الكتاب يجوز مشاركته أو نسخه لمنفعة المسلمين بالعلم، ولكن ليس للتربح الشخصي. إذا أراد أحد تنقيته أو تلخيصه وإعادة نشره فلا مانع عندي ولكن ليتق الله.

فهرس الجزء السادس

فهرس الجزء السادس 2
6. كيف أتخلص من عبء الذنوب التي عليَّ؟ 3
الاستغفار 4
التوبة 8
تقوى الله 12
العمل الصالح 13
الصبر على البلاء مع شكر الله 30

6. كيف أتخلص من عبء الذنوب التي عليَّ؟

إن المعاصي التي يرتكبها الإنسان لها آثارٌ وأحمالٌ في الدنيا والآخرة، فالمُبادرة في الإنابة إلى الله وإصلاح ما صدر من العبد هو عين الحكمة والحزم، فلعل مسلم يتوب فيعفو الله عنه قبل أن ينزل عقاب الله عليه في الدنيا حتى، فيَسَلَم. ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد الذي يدفع المسلم إلى طلب عفو الله، فإن للمعاصي ثقلًا على المسلم تؤرِّقه في الدنيا والآخرة. فمن أثقال المعصية في الدنيا أنها تفضي بالعبد إلى أنين ضميره عليه وخجله من نفسه.

وأيضًا، قد يلاحظ أن الابتلاءات زادت، فتارةً يُسلِّط الله عليه من يُهينه، وتارة يُنشأ له العوائق عن حوائجه، وتارة تصيبه أمراض في جسده، وتارة يتلف بعض ماله، وتارة يترأسه مَن يظلمه ويقهره، وهكذا. وكل هذه العقوبات الدنيوية لا تُدفع في الأساس بالقوة، ولا بالمزيد من العناد والمخالفة لقوانين الله (بمعصية أخرى للقضاء على عقوبة معاصٍ سبقت، مثل الخروج بالسلاح على الحاكم المستحق للولاية لأنه ظالم، والذي سلَّطه الله على العباد لتخليهم عن أجزاء من دينه)، إذ إن ذلك يزيد الوضع سوءًا وتعقيدًا، ويجلب فِتَنًا أكبر. إنما ينبغي مقابلة تلك العقوبات بالتوبة إلى الله، والصبر عليهن مع تفادي فتنتهن، وبالعودة إلى الالتزام بشرع الله ومُحاولة رفع العقوبة فقط بالأساليب المشروعة، ودعاء الله أن يرفعهن، إذ إن تلك الأضرار متعلقة بمعاصي الناس ولكن قليل هُم من يدركون هذا ويُطبِّقون الذي ذُكِر. قال الحسن بن الحجاج عما يصيب المرء مما يكرهه: عقوبة من الله لكم، فلا تُقابلوا عقوبته بالسيف، وقابلوها بالاستغفار[1].

أما فيما يختص بالآخرة، فخشية العبد من الله، ويقينه بالمعاقبة على معاصيه، دوافع لطلب العفو من الله. هذا كله، وغيره، دواؤه واحد، وهو باللجوء إلى الله وإصلاح ما تسبب فيه العاصي، فيخف أغلب الثقل الذي عليه (فهناك أمور تبقى مع العبد، مثل الندم والخجل مما اقترفه، ولكن وطأتها تتقلص).

الجانب النفسي، مثل تأنيب الضمير للنفس، شيء إيجابي إذ إن هذا الندم يدفع المرء باستمرار –مثل الوقود– إلى إصلاح حاله وما تسبب فيه من فساد، وعدم العودة إلى ما كان عليه. ولكن إذا زاد هذا التأنيب عن الحد المطلوب، فقد يأتي بتأثير عكسي عن طريق تيئيس المرء من النجاة فيترك الإصلاح جملةً. هنا ينبغي تهدئته، ومن أقوى الطرق في هذا هو أن يُسلِّم نفسه لله ويترك تدبير الأمور له سبحانه، فيقبل ويأمل ويرجو من الله أن يُصلح ما أفسده المرء إذ إن المرء لا

[1] صيد الخاطر لابن الجوزي 399 .

يستطيع إصلاح ما تسبب فيه وكأنه لم يحدث، ولكن الذي يُدبِّر أمور السماوات والأرض والمخلوقات قادر على إصلاح الأمور –بل وربما إحداث من ورائها منافع– وكأن الفساد لم يحدث. وفيما يلي ذكرٌ لبعض السُبُل للتكفير عن السيئات:

الاستغفار

إن الله أرشدنا أن نستغفره عندما نعصيه، وبذلك يغفر أو حتى يعفو عن العاصي. فإن لم يغفر الله لذاك العاصي لأي سببٍ من الأسباب (كأن يستغفر العبد دون ندم على ما فعل، أو يكون المستغفر مُشركًا كما سيأتي في الآيات القادمة)، فمُجرَّد الاستغفار يمنع نزول عذاب الله على العاصي في الدنيا. وذلك مصداقًا لقول الله تعالى {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32) وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال 32–33]. وهاتان النقطتان هما أساس فوائد الاستغفار الذي قد لا يُقَدِّره الناس حق قدره، لأن هناك فوائد أخرى مثل الزيادة في الرزق وأخذ ثواب على ذكر الله، فالاستغفار فوائده متعددة للعبد.

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) توجيها لنا "وَاللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً"[1]. هكذا كان حال الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالرغم من أنه لم يعصِ الله قط، بالإضافة إلى أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما بالي فيما يفترض أن أفعله وأنا أقع في معصية الله؟!

فالاستغفار المستمر مطلوب لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قدوة لنا فيجب أن نتأسى به، ولأن المرء يصيب من الذنوب وهو لا يعي أنه قد أصاب ذنبًا. ذلك إما عفويًّا منه، كأن يُطيل النظر إلى امرأة قد وقعت عليه عينه، وإما غير ذلك مثل أنه يرتكب عملًا كان من آثاره مظلمةٌ لأحد أو لنفسه ولم يلاحظ ذلك. أو قد يقع المرء في غير ذلك مثل أن يعمل عملًا لا يظن أن فيه مُحرَّم، ولكن فيه إثم وهو لم يسأل أهل العلم عن ذلك، وهذا دون حسابه الذنوب المتعمدة التي يصيبها المرء يوميا. فالكياسة تتضمن أن المرء يلازم استغفار ربه يوميًّا، آملًا أن يتوب الله عليه لما تعمده أو لم يلاحظه أو نسي أن يستغفر الله على شيءٍ قد مضى.

وإذا وجد المرء نفسه قد وقع في المعصية، فعليه بأمرين: الاستغفار والعمل الصالح (الحاجة إلى العمل الصالح سيأتي الكلام عنه لاحقًا إن شاء الله). فالاستغفار هو اعترافٌ بالخطأ وبالضعف في الثبات على طريق الصواب، وهو إعلان عن الندم على الخطأ، وإبراز لضعف وعجز العبد متمثلًا

[1] صحيح البخاري 5832.

بطلب المغفرة بانكسار وخضوع من الذي بيده كل شيء. وقال العلماء إن الاستغفار مثل الدعاء، فيُشترط له ما يشترط في الدعاء، كحضور القلب، وصدق الطلب، والافتقار إلى الله. وقد سأل سيدنا عُقبَةَ بن عَامِر (رضي الله عنه) الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن كيفية النجاة قائلًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا النَّجَاةُ؟ قال "أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ"[1].

وقد كثرت الأدلة التي تحث على الاستغفار في القرآن والسنّة مثل {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [النساء 110]. وقال سيدنا أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه): أَمَانَانِ كَانَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رُفِعَ أَحَدُهُمَا وَبَقِيَ الآخَرُ: ثم تلا {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال 33]، (أي يقصد صمامين للأمان من نزول عذاب الله، قد رُفع أحدهما وبقي لنا الآخر نعمد إليه، فعلينا بمداومة الاستغفار).

ومهما كثرت زلّات العبد في الوقوع في المعصية فلا يجوز أن يقلع عن الاستغفار يأسًا، لأن ذنوب العبد مهما بلغت فلا تُوازي شيئًا أمام سعة رحمة وعفو الله. الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أمّلنا في مغفرة الله وزيادةً إذا أكثر العبد من الاستغفار، وذلك في عدة أحاديث، منها "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"[2]. وجاء أيضًا عنه (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ؛ قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي، لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي"[3].

في لفتة جانبية عن قضية الكتاب، جاءت أدلة مباشرة على أن الاستغفار يزيد من الرزق، منها ما في القرآن الكريم مثل قول سيدنا نوح {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا} [نوح 10-13]. ومنها في السنة الشريفة مثل قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ"[4].

---

[1] سنن الترمذي 2330.

[2] صحيح مسلم 4953.

[3] مسند أحمد 10807.

[4] سنن أبي داود 1297.

فأوصيكم ونفسي بملازمة الاستغفار والكثرة منه قدر المستطاع، مع الصدق في نيل المغفرة، لأن له أثرين قيمين، أولهما محو الذنوب فيخف الحساب يوم القيامة مع زيادة الحسنات بسبب ذكر الله، والآخر هو الزيادة في الرزق. والزيادة تكون إما بطريقة مباشرة عن طريق زيادة دخل المال وإما بمولود جديد مثلًا، أو غير مباشرة عن طريق تقليص المصروفات على الاحتياجات مثلًا والبركة في المال، فيُحقق بنفس القدر المال حوائج أكثر من المعتاد.

وقد جاءت الوصية في الآية للرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولكن ليست خاصة له بل هي لجميع المسلمين، ولكن نحن أحوج للاستغفار من الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وذلك لسببين. الأول أنه (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يعصي الله لأن الله عصمه من ذلك، والثاني أن له تكريمًا أنه غُفر له ما تقدم وما تأخر من ذنبه كما جاء في الحديث عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلاهُ، فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ "يَا عَائِشَةُ، أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورا"[1]. فإذا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) مغفور له وهو لا يعصي الله، فمن أحوج إلى الاستغفار؟ إنما كان استغفاره كي يكون عبدًا شكورًا وكي يُعلمنا ويحُثَّنا على الاستغفار بكونه قدوةً لنا.

أما فيما يتعلق بصيغة الاستغفار، فيمكن الاقتصار على قول 'أستغفر الله' كما دل حديث سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "وَمَنْ اسْتَغْفَرَ اللَّهَ غَفَرَ لَهُ"[2]، وأنه كان يستغفر الله ثلاثًا بعد الصلاة بهذه الصيغة. وهناك صيغة أخرى في الحديث "مَنْ قَالَ حِينَ يَأْوِي إِلَى فِرَاشِهِ 'أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ' ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ، وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ وَرَقِ الشَّجَرِ، وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ، وَإِنْ كَانَتْ عَدَدَ أَيَّامِ الدُّنْيَا"[3] (عَالِجٍ هو موقعٌ فيه رمال كثيرة متراكمة).

وللمرء أن يقول: اللهم اغفر لي؛ رب اغفر لي؛ اللهم غفرانك؛ إلخ، والمهم أن يكون مخلصًا فيها قاصدًا أن يغفر الله له. وقد نبأنا سيدنا عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما): كَانَ يُعَدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةُ مَرَّةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَقُومَ [قوله] "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ"[4]، أو كما في رواية أخرى "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ"[5].

---

[1] صحيح مسلم 5046.

[2] سنن الترمذي 3392.

[3] سنن الترمذي 3319.

[4] سنن الترمذي 3356.

[5] سنن أبي داود 1295.

فهذه الصِيَغ المختصرة تُسهِّل كثرة الاستغفار، ولكن أقوى صيغة استغفار قد علَّمنا إياها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ"، ثم أكمل قائلًا عنها "وَمَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَمَنْ قَالَهَا مِنْ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ"[1].

ولا يستصغر أحدٌ شأن الاستغفار أمام ذنوبه، فقد جاء أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ (أَوْ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ) لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَمْلَأَ خَطَايَاكُمْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتُمْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَغَفَرَ لَكُمْ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ (أَوْ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ) لَوْ لَمْ تُخْطِئُوا لَجَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْمٍ يُخْطِئُونَ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"[2]. فهلم بنا. ولزيادة فرصة قبول الاستغفار والإثابة عليه يُفضَّل أن يكون العبد مستحضرًا لعظمة الله، مُخلِصًا متضرعًا متذللًا في التوسل إلى ربه كما دل الحديث "إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيْرُكَ"[3].

وفي الختام، كي يُكثر العبد من الاستغفار ويجعله عادة عنده، عليه أن يُحب الاستغفار بإدراك قيمته. وحتى ندرك قيمة الاستغفار، ينبغي أن نعلم أن الكافر في ورطة وهلاك... كيف؟ لأنه إذا وقع في معصية فإنه لا يستطيع محوها مهما فعل، فهي دائمة بالنسبة إليه، لا يستطيع الرجوع فيها وإن عمل أعمالًا صالحة لتكفيرها، لأنه قد كفر بالله الذي يقبل الاستغفار ويمحو الخطيئة ويُصلح آثار المعصية، فكيف يتوقع أن يمحوها الله –الذي بيده إصلاح ما أفسده العبد– بعدما كفر المرء به تعالى؟ إن الكافر إذا عمل أعمالًا صالحة ليُعادل آثار خطيئته، فإنما يُصلح ما بينه وبين الناس قليلًا ويحسبون له أنه أصلح بعض الشيء، ولكن لن ترجع الأمور كما كانت أبدًا لأنه لا يستطيع رد الحقوق بتفاصيلها لأصحابها، إنما يستطيع فعل ذلك اللهُ وحده. فإذا لم يقبل الله توبة الكافر ولا عمله الصالح حتى، فلن يُصلح عمل المُفسِد (الكافر)، فكيف تعود الأمور كما كانت قبل المعصية إذًا إلا بعد القصاص للمظلومين منه يوم القيامة؟!

فتخيلوا وضع هذا الشخص، أن كل خطيئة يرتكبها تتراكم عليه دون رجعة إلى أن يُحاسَب عليها يوم القيامة! أما بالنسبة إلينا، فباب محو الذنوب مفتوح لمن يطلب المغفرة من الله، لأننا آمنا أن الله هو الذي يأخذ على العبد خطيئته وبيده أن يعفو عنها، فيمحو الله أثرها ويُصلِح تبعاتها. الحمد

---

[1] صحيح البخاري 5831.

[2] مسند أحمد 13006.

[3] سنن الترمذي 3368.

لله أنه أتاح لنا أن نُصلح خطيئاتنا مهما كثرت وبلغت ما دمنا لا نُشرك به شيئًا، فكيف نترك هذه الميزة الثمينة دون الانتفاع بها؟!

التوبة

إن الإنسان خُلق ضعيفًا فيقع فريسةً لشهواته، خطَّاءٌ فيُسيء القرار ويقع في المعصية. وما يريده الله من الإنسان هو أن يُجاهد نفسه من الوقوع في المعصية، فإذا زلّ بعد هذا فوقع في معصية فالمطلوب أن يُنيب إلى الله بالاستغفار والتوبة على ما صدر منه في حق المولى سبحانه، وإن أتبعها بعمل صالح فذلك من الإحسان، وهذا كله مُشار إليه في حديثٍ واحدٍ للرسول (صلى الله عليه وسلم) "اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ، وَخَالِقْ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"[1]. فليس المُفترض هو أن يبلغ الإنسان مرحلة أنه لا يعصي الله أبدًا إذ هذا ليس في إطار استطاعته، ولكن ما يستطيعه هو أن يُجاهد المعصية ويتوب إلى الله إذا وقع فيها، فإن قصَّر في الجهاد والتوبة بصدق فهذا الذي سيُؤاخذ عليه.

ولو أن الإنسان بلغ مرحلة أنه لا يعصي الله أبدًا، لذهب الله بنا إذ إن ليس هذا مُراد الله من خلقنا، وإنما مُراده من خلقنا هو أن نعبده ومعنا القدرة على عصيانه –أي عبادته اختياريًّا–، فمن حقق هذا يكن في منزلة أعلى من الملائكة عند الله. أما إن حققنا ألا نعصيه أبدًا لذهب الله بنا ولأتى بغيرنا يعصونه ثم يستغفرونه، لأنه مُسبقًا عنده الملائكة الذين لا يعصونه أبدًا. فخير الناس عند الله في هذا الجانب ليس من امتنع عن معصيته تعالى تمامًا (وهذا غير ممكن أصلًا)، بل هو من يُجاهد نفسه عن المعصية ويُكثر الإنابة لله مما وقع فيه من معصية. قال (صلى الله عليه وسلم) "كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"[2].

على ذلك النحو، نبأنا العلي العظيم {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة 222، جزء من الآية]. وكان في وصية من الرسول (صلى الله عليه وسلم) للسيدة عائشة (رضي الله عنها) "وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ"[3]. بل وقد وعد الله المسلم الذي يتوب ويعمل صالحًا أنه سيُغفر له قطعًا {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} [طه 82]، والله لا يُخلف وعده.

ومما يُبين لنا مدى حب الله للتائب ما قاله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ

[1] سنن الدارمي 2671.

[2] سنن الترمذي 2423.

[3] صحيح البخاري 2467.

وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ"[1]. فإذا كان الله يُحب توبة عبده هكذا، فمال العبد يمتنع من أن يتوب إلى الله؟!

هذا وقد وأمرنا الله بدوام الرجوع إليه بالتوبة والطاعة {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الروم 31]. وإن الله لا يرد تائبًا صادقًا بالرفض والخيبة، ولو تكرر من العبد الرجوع إلى نفس الذنب زللًا ثم إلى الله بالتوبة، ما دام العبد ليس بمُصِرٍ على ذنبه ولا متعمدًا لتكرارها في أثناء توبته. أي ينبغي أن يكون عازمًا وصادقًا في نيَّته في أثناء توبته أنه لن يرجع إلى الذنب.

وهذا يتبين لنا من عدة أحاديث لنبي الله (صلى الله عليه وسلم)، منها قوله "إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؛ فَغَفَرَ لَهُ. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي"[2].

وقد يسأل سائل: ما الفرق بين الاستغفار والتوبة؛ وما الداعي للتوبة ما دام الاستغفار يكفي ليغفر الله للمُذنب؟ والإجابة عن الفرق هي أن شروط التوبة تتضمن أربعة أمور:

- حاضرًا: وهو الإقلاع عن الذنب.
- ماضيًا: وهو الندم على فعل المعصية، وعادة يتضمن الاستغفار. والندم هو محور التوبة، إذ قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "النَّدَمُ تَوْبَةٌ"[3]. ومن مؤشرات قوة الندم هو البكاء على ما تم ارتكابه، خوفًا من الله وحسرة على ما فات من الدرجات وحزنًا من المفسدة التي أحدثها، وهي من العلامات التي أثنى عليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "طُوبى لمن ملَكَ لسانَه، ووَسِعَه بيتُه، وبكى على خطيئتِه"[4]. إن الندم ينبع من تعظيم الجناية التي ارتكبها العبد، كما قال ابن القيم (رحمه الله): فأما تعظيم الجناية فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها، وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها، فإن من استهان بإضاعة فِلس –مثلًا– لم يندم على إضاعته، فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه، وعظمت إضاعته عنده. وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الأمر [المُرتَكَب]، وتعظيم الآمِر [أي الله]، والتصديق بالجزاء[5].

---

[1] صحيح مسلم 4932.

[2] مسند أحمد 8888.

[3] سنن ابن ماجه 4242.

[4] صحيح الترغيب للألباني 2740.

[5] مدارج السالكين لابن القيم 203/1.

- **مستقبليًّا: وهو العزم على عدم تكرارها.**

- **رد الحقوق إلى صاحبها إن كان في المعصية مظلمة لأحد، وهذا من الصدق في التوبة. وعلى هذا النحو، فإن المبتدع الذي دعى الناس إلى بدعة ينبغي أن يبين لهم السُنَّة حتى تكتمل توبته، وكذلك الذي كان يكتم ما أنزل الله ينبغي له بيانه مع الإصلاح للتوبة. وكذلك من أخطأ في نقل فتوة شرعية ينبغي له توضيح الصواب؛ أي يُبيّنوا الفساد أو الخطأ الذي كانوا عليه. هذا لأن التوبة الصادقة هي أن يفعل المرء ضد الذنب إن أُتيح، ومعالجة آثاره قدر المستطاع. إن كان هناك حقوق ولم تُرَدّ إلى المظلوم، فإن التوبة لا تُقبل لأن الله لا يَقبَل إلا طيبًا، وظُلم الناس ليس من طيب الأعمال. ودل على هذا قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة 159–160]، فقد استثنى الله من اللَّعن الذين أصلحوا فعلتهم وبيَّنوا ما كتموه من الشريعة مع توبتهم. عامةً، حتى وإن لم يكن هناك حقوق للناس على العاصي، فإن التوبة تكون أصدق وأكثر قابلية لقبولها من الله عندما يعمل العبد عملًا صالحًا يُضاد ذنبه، فمن كان يستمع للمعازف فليُبدله باستماع القرآن، ومن كان يشرب الخمر فليتصدق بالمشارب الحلال، إلخ.**

أما الاستغفار، فهو طلب المغفرة، وأصله: ستر العبد فلا ينفضح، ووقايته من شر الذنب فلا يُعاقَب عليه. فالفرق هو أن العبد قد يستغفر الله باللسان ولم ينوِ ترك المعصية مستقبلًا، وبذلك لم يتُب إذ إنه يقصد به أساسًا إصلاح الماضي. فالتوبة أشمل، وهذا هو الفرق الأول. الفرق الثاني هو أن هناك ذنوبًا قد لا تُغفر إلا بالتوبة، مثل الذي استولى على قطعة أرض من شخص. ليس من المعقول أن يغفر الله للمُغتصب وهو لم يَرُد الأرض إلى مالكها، لأن الله لن يزيد من ظلم الضحية بالعفو عن العاصي بينما لا يزال العاصي يستولي على أملاك الضحية. وبالطبع لو أن الله عفا عنه في هذه الحالة، فإنه إرساخ أن يتعمد الناس ظلم بعضهم بعضًا ثم الاستغفار، لأن الظالم سيفلت ويُحَصِّل المكسَبَين: يستفيد في الدنيا بالأملاك المُغتصبة ظُلمًا، مع إعفائه من المُعاقبة في الآخرة على اعتدائه.

ثم لو كان عفو الله عند المرء أعظم وأولى من اقتناء الملك الذي استقّطَعه ظُلمًا، لتنازل عما اغتصبه، ولكن بعدم تنازله عن الأملاك فهو بمنزلة المُعترف أنها أَهَم لنفسه من أن يغفر الله له، وهذا يُنافي الصدق مع الله في ابتغاء عفوه. وليُعلم أن المُصر المستهتر بالمعاصي على الأرجح لا

يُغفر له معصيته، سواء بالاستغفار إذ إنه لم يصدق مع الله في ندمه فسلوكه أشبه بالمكر، أو بالتوبة إذ إنه لا يعزم على ترك المعصية فهو كمن لم يتب أصلًا.

وإجابة السؤال الثاني، وهو: ما الداعي من التوبة إذا كان المُستغفر يُغفر له ذنبه، فقد قال فيه الشيخ ابن تيمية (رحمه الله) كلامًا طيبًا: موانع لحوق الوعيد [بالعبد من الله] متعددة، منها: التوبة، ومنها: الاستغفار، ومنها: الحسنات الماحية للسيئات، ومنها: بلاء الدنيا ومصائبها، ومنها: شفاعة شفيع مطاع، ومنها: رحمة أرحم الراحمين (انتهى). ومعنى كلامه هو أن كلما زاد العبد من تلك الأفعال، زادت احتمالية نيل مغفرة الله وتجنب عقابه.

ثم إن العبد النادم الخائف مما ارتكبه يريد التخلص والتطهر تمامًا من معصيته أمام الله، فهو أكثر ميولًا للتوبة عن الاستغفار وحده. ذلك لأنه يريد الطمأنينة أنه فعل كل ما في وُسعه ليغفر الله له، ولأنه يريد أن يُبدي إلى الله شدة ندمه فيزيد في ما يُقدِّمه لله. هذا الوضع شبيهٌ بقاتل يريد إخفاء آثار جريمته ومحو كل التفاصيل التي تربطها به، فيغسل ثيابه عدة مرات من الدماء وبطُرقٍ شتى؛ وهذا هو الشبه بينه وبين الخائف المنيب إلى الله، شدة الرغبة في محو الجُرم.

ولزيادة فرصة قبول التوبة، بل وأخذ حسنات أكثر على تلك التوبة أيضًا تَكَرُّمًا من الله، يُستحب الانكسار والخضوع لله عند الإقرار بالخطأ، والإلحاح في طلب المغفرة وما شابه ذلك مثل فعل العمل الصالح تكفيرًا لذلك الذنب. كل تلك من مؤشرات الندم وشدة حاجة العبد في نيل التوبة من الله، فتزداد فرصة قبول التوبة وترتفع منزلة العبد عند الله، ويغفر الله للعبد لتواضعه وضعفه وندمه. فكلما أحسن العبد في توبته، جزاه الله عليها أكثر، إلى درجة أن الله قد يُبدِّل سيئات العبد على تلك المعصية إلى حسنات.

ويُندب، إن كان هناك مظلوم، الإقرار بالخطأ للمظلوم أيضًا إذا كان ذلك سيخفف عن المظلوم، أو لطلب السماح وإصلاح العلاقة، وذلك بالطبع بعد رد حقوقه إليه، مع التضرع والتذلل إلى الله راجيًا العفو. وهذا الكلام مستدلٌ عليه من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ"[1]. أما إن كان هذا سيزيد الفساد أو الخصام أو الإضرار بالمظلوم وفي شيء غير ملموس، مثل الاعتراف له بكلمة غيبة أو بهتان قيلت في حقه، فالأجدر –كما أفتى العلماء– هو طلب المغفرة من الله لك وللمظلوم، والدعاء له بالخير، مع رد الغيبة عنه أمام الناس.

[1] صحيح البخاري 2269.

نصيحة أخيرة: كلما عَجّلت بالتوبة كان ذلك أدعى للمغفرة وأفضل في الأجر (مثل أن تُبدِّل السيئات إلى حسنات)، لأن سرعة المبادرة بالتوبة مؤشرٌ من مؤشرات الإيمان، لأنها تدل على تلهف العبد على مغفرة ربه، وانقياد لأحكام الله في عادته. لا شك أن سرعة المبادرة إلى الله، سواء في الإقبال على الأعمال الصالحة أم في التوبة من معاصٍ، لها مكانة عند الله وتُرضيه أكثر، وقد أدرك سيدنا موسى (عليه السلام) هذا فقال {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى} [طه 84، جزء من الآية]. وكلما كانت المبادرة بالتوبة مبكرة دل ذلك على شدة الندم، فمن الناس من يندم في أثناء المعصية، فيقطع معصيته وهو لم يُتِمها بعد، وابتعد عنها وتخلص من متعلقاتها، ويعزم على عدم العودة إليها. فهذه بلا شك من أفضل التوبات.

تقوى الله

قال تعالى {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق 5]، ففي الآية دليل على أن الله يمحو السيئات لمن يتقيه. قال العلماء إن تقوى الله تعني: الإيمان بالله، وتنفيذ أوامره، وتجنب معصيته؛ تلك هي الثلاث جوانب. قال ابن كثير رحمه الله: وأصل [معنى] التقوى: التوقي مما يكره؛ لأن أصلها وقوى من الوقاية. فالذي يتقي الله يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية، وهذا بالبُعد عما نهى تعالى عنه واسترضائه بما أمر به، فيكون حاله مع الله في السر والعلانية سواء.

من الآية نرى أن بالتقوى يمحو الله سيئات سابقة للعبد لم يستغفر منها (لنسيان أو جهلٍ مثلا). وليس هذا فحسب، بل إن الله يُعظم له أجرًا، فقد يُضَعِّف له الله حسناته، وربما يُبدل سيئاته حسنات حتى، فأي مكسبٍ يوجد أكثر من هذا؟! فيا إخواني، أوصيكم وأوصي نفسي بتقوى الله، ثم تقوى الله، ثم تقوى الله، فقد قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال 29].

بل وأمرنا الله بها قائلًا {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [آل عمران 102]. قال سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) عن قوله تعالى {اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}: أن يُطاع فلا يُعصَى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر. فعندما نزلت الآية، شق ذلك على الصحابة إذ إنهم لا يطيقون تطبيقها، فأنزل الله بعدها {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن 16، جزء من الآية]. فقد خفف الله عنا، أفلا نغتنم الرحمة بأن نجتهد من جانبنا في تقوى الله إذًا؟

ومن تقوى الله أن يجتنب العبد الذنوب التي تكون كبيرةً عند الله، فذلك أدعى أن يُغفر له عندما يُقابل العبد ربه؛ يكون عليه حمل صغائر الذنوب وحدها، فإن الله لطيف رؤوف عفو غفور رحيم. والدليل على أن الله عامة يغفر لمن كانت ذنوبه دون الكبائر هو قوله تعالى {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} [النساء 31].

العمل الصالح

قد تكلمنا على أهمية أن يتبع المرء معصيته بالاستغفار، واستحباب إلحاق هذا بعملٍ صالحٍ لأن الله حث على ذلك {وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا} [الفرقان 71]، ففي الآية إشارة إلى أن من يفعل ذلك فقد أحسن في توبته. والعمل الصالح يُندب لأن له عدة فوائد، منها أنه يُقلّص من عصيان العبد مُستقبلًا، ومنها أنه يمحو السيئات كما قال الله تعالى {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ} [هود 114]. وقد أعطانا الله وعدًا أنه سيغفر من ذنوبنا بحسب أعمالنا الصالحة، فقد قال تعالى {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [المائدة 9].

لذلك نجد في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى أنه من يؤمن بالله ويعمل صالحًا يدخل الجنة، مثل الآية {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة 82]، وتلك هما الخصلتان اللذان يحتاجهما العبد للنجاة. ولا يتم التطرق في أغلبهن إلى أنه ينبغي له التوبة أيضًا، بالرغم من أن العبد يقع في الذنوب لا محالة، لأن إن كان عمله صالحًا عامةً فإنه يُكفّر عنه سيئاته {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} [العنكبوت 7]. ولكن ينبغي الانتباه، أن الآيات لا تنفي أن العبد قد يدخل النار أولًا، فقد يحدث هذا مع من فاقت سيئاته نطاق تكفيرها بأعماله الصالحة؛ فالوعد هو أنه سيدخل الجنة (أي عاجلًا أم آجلًا).

ولننتبه لوصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى سيدنا أبي ذر (رضي الله عنه) "اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"[1]. وقال أيضًا (صلى الله عليه وسلم) "فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلاةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ"[2]، فهذا كله يؤكد أن العمل الصالح عامةً يُكفّر عن السيئات ويطمس عليها. والمُبشّر في الأمر أكثر أن أبواب العمل الصالح كثيرة، أكثر من أبواب السيئات.

وهناك من الأعمال الصالحة أشياء يسيرة، مثل الصدقة التي قد حث عليها صراحة رسول الله (صلى الله عليه وسلم). هذا فيما رواه لنا سيدنا مُعَاذ بن جَبَل (رضي الله عنه) قائلًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنْ النَّارِ، قَالَ "لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: تَعْبُدُ اللَّهَ وَلا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ"، ثُمَّ قَالَ "أَلا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا

[1] سنن الترمذي 1910.

[2] صحيح البخاري 1762.

رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}؛ أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟"، قُلت: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال "رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ؛ أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟"، قُلت: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ فأَخَذَ بِلِسَانِهِ وقال "كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا"، فقلت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقال "ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ (أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ) إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"[1].

وحول معاني الحديث، جُنَّةٌ أي وقاية وستر من المعاصي بكسر الشهوة وخفض القوة؛ بِرَأْسِ الأَمْرِ أي أمر الدين، ثم قال إنه الإسلام أي بمعنى الشهادتين، فإن الشهادتين في الإسلام بمنزلة الرأس إلى الجسد، فلا يُقبل عمل صالح إلا بالإيمان بالله وبرسوله محمد (صلى الله عليه وسلم). وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ أي أقصى ارتفاع ودرجة فيه؛ بِمَلاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ أي إحكام الأمر وتقويته، والمقصد هو ما يُسهِّل فعل كل ما ذُكر؛ كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا أي أن تحرس وتحفظ.

وقد أوصى الرسول (صلى الله عليه وسلم) النساء زيادةً بالتصدق قائلًا "يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الاسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ"، فقالت امرأة منهن جَزْلَةٌ (أي ذات حكمة ورأي): وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ؟ قال "تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ" (وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ أي يُنكِرنَ ويَجحَدن فضل الزوج وإحسانه؛ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ أي ما من شيء يُذهب عقل الرجل الرزين العاقل أكثر منهن، وذلك بيان على مدى فتنتهن للرجل)، قالتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ "أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ، فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ؛ وَتَمْكُثُ اللَّيَالِي مَا تُصَلِّي وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ، فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ"[2].

هذا الحديث ممتلئ بالنصائح والفوائد، منها أن الصلاة والصيام يقوّيان إيمان العبد. وهناك فائدة متعلقة بموضوعنا الحالي، فلتكن لنا عامة وللنساء خاصة، وهي أن مِن تكفير الذنوب: التصدق والاستغفار الكثير. فيما يختص بالصدقة، فقد جاء أيضًا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَتَدْفَعُ عَنْ مِيتَةِ السُّوءِ"[3]. ومع أن الأعمال الصالحة عامةً تمحو السيئات، فإن الظاهر هو أن الصدقة هي من أفضل السبل لتجنب عقاب الله.

لعل هذا لأن الصدقة فيها تضحية من العبد لمخلوقات الله ابتغاءً لرضا الله، سواء بالمال أم المجهود، فيرأف بهم ويقضي حوائجهم. التصدق بيان لله أنه بالرغم من أن العبد أخطأ مع الله وأضَّر نفسه بالمعصية، فإنه يسعى ليُصلح أحوال عباده الآخرين، ويكأن العاصي يطلب مغفرة الله بطريقة

---

[1] سنن الترمذي 2541.

[2] صحيح مسلم 114.

[3] سنن الترمذي 600.

غير مباشرة، بأن يشهد له عباد الله بالحُسنى. ففيها بذل النفس وما تملك لنفع الآخرين، ووهب شريحة من أكثر الأشياء المحبوبة للنفس (المال) قهرًا لها وإيثارًا لإخوانه على نفسه، والله يُحبُ ذلك فيعفو. إضافة إلى هذا، فإن الصدقة تؤثِّر في قلب العبد بأن تُرقِّقَه وتترك بصمة في نفسه، فتكون فعَّالة في منعه من ارتكاب المعاصي.

هنا ينبغي الانتباه أن الصدقة لا يُشترط أن تكون بالمال لتكفير الذنوب، إذ إن معنى الصدقة هو أن يَهب العبد شيئًا تقرُّبًا إلى الله. فتعليم العلم النافع، وإطعام الناس، وتوفير الماء لمن يحتاج إليه (كحفر بئر أو تركيب برّاد) أنواع من التصدق أيضًا. سأل سيدنا سعد بن عبادة (رضي الله عنه) الرسول (صلى الله عليه وسلم): يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ، أَفَأَتَصَدَّقُ عَنْهَا؟ قَالَ "نَعَمْ"، قُلْتُ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ "سَقْيُ الْمَاءِ"[1]؛ فهذا من أفضل الصدقات الجارية على المُتوفى.

بل هناك التصدق على العباد عن طريق أعمال صالحة غير مباشرة، تصلهم فوائدها، مثل إماطة الأذى عن الطريق. ومنها ما هو في غاية اليُسر لمحو الذنوب، ولعل من أيسر أنواعها هو ذكر الله تعالى، والذي هو صدقة استدلالًا بقول الرسول (صلى الله عليه سلم) "يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنْ الضُّحَى"[2] (سُلامَى أي عظمة ومفصل في الجسد؛ تَهْلِيلَةٍ أي قول لا إله إلا الله؛ وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنْ الضُّحَى أي أن ركعتي الضحى تكفي ما على العبد في يومه من صدقات عن هيكل الجسد، وهذا شُكرًا لله).

من الأذكار ما خصَّها الله بمحو جميع الذنوب لنصف يوم، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ 'اللَّهُمَّ أَصْبَحْنَا نُشْهِدُكَ وَنُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلَائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ بِأَنَّكَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ اللَّهُ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ'، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا أَصَابَ فِي يَوْمِهِ ذَلِكَ. وَإِنْ قَالَهَا حِينَ يُمْسِي غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا أَصَابَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِنْ ذَنْبٍ"[3]. وفي حديث آخر جاء "مَنْ قَالَ 'لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ' فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. وَمَنْ قَالَ 'سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ' فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ"[4] (زَبَدِ الْبَحْرِ هو ما يطفو على أمواج البحر من رغوة، وهي كناية عن كثرة الذنوب).

---

[1] سنن النسائي 3604.

[2] صحيح مسلم 1181.

[3] سنن الترمذي 3423.

[4] صحيح مسلم 4857.

ومن أنواع ذكر الله: قراءة القرآن، الذي حثنا عليه الرَسُول (صلى اللَّهُ عليه وسلم)، والذي فيه منافع عظيمة وشفاءٌ لنا وأجرٌ بالغ، فكل حرف بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها. فكل هذا الثواب، والذي يقي العبد من عقاب الله أيضًا، في المتناول بهذه السهولة؟! وتوضيحا لنقطة جانبية، قد يظن البعض أن في ظاهر الأحاديث تعارض عن أي الأذكار أفضل، والخلاصة هي أن أفضل الكلام إلى الله مما يقوله البشر هي كلمة 'لا إله إلا الله'، ولكن أفضل كلام على وجه الأرض هو بالطبع كلام الله، أي القرآن.

بل وأكثر وأكثر، ففي حالة مُعيَّنة وبِنيَّة خالصة، قد يحدث أكثر من مغفرة الذنوب فحسب. قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهُ، إِلَّا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ"[1]!

ومن الأعمال الصالحة ما يصدر من المرء تلقائيا، لدرجة أنه قد لا يُلقي بالًا أنه فعلها، ولكن يغفر الله له بها ذنوبة إذا صلحت نيات العبد. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا"[2].

بل وإنَّ فِعل لا شيء أحيانًا، في الموضع المناسب، يكون صدقة، مثل إمساك اللسان عن النطق بكلمة لن تُفيد أخاه بشيء. وأيضًا، هذا يتحقق في حال أن يمتنع العبد من إيذاء أحد عندما يتعرَّض له ذلك أو يخطر بباله، فقد سأل سيدنا أبو ذر (رضي الله عنه) النبي (صلى الله عليه وسلم): يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ "إِيمَانٌ بِاللَّهِ تَعَالَى وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ "أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَغْلَاهَا ثَمَنًا"، قَالَ: فَإِنْ لَمْ أَجِدْ؟ قَالَ "تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ"، وَقَالَ: فَإِنْ لَمْ أَسْتَطِعْ؟ قَالَ "كُفَّ أَذَاكَ عَنْ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَنْ نَفْسِكَ"[3] (تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ أي تعمل شيئًا لجاهل لا وظيفة له). ولكن، النية مهمة في كل الأعمال، أنها لله ووِفقًا لشرعه.

إن الله يقبل القليل والبسيط من العمل الصالح لكل مُوحِّد. قد قال تعالى {إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الفرقان 70]. في المعنى الشامل لهذه الآية، أنه من تاب عن المعاصي (التي سبق ذكرها في الآيات التي تسبقها، ولكن لا ينفي هذا أن تكون الآية عامة عن المعاصي) وآمن بالله وكان عمله صالحًا عامةً بعدما تاب، فإن الله سيُبدل سيئاته التي مضت من تلك المعاصي إلى حسنات.

---

[1] مسند أحمد 12000.

[2] سنن الترمذي 2651.

[3] مسند أحمد 20368.

لكن يجب أن نلاحظ جملة {وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا}، فقد عَمَّم اللهُ ولم يُخصص، وأفرد ولم يُجمع (أي صيغة الكلام أن التبديل قد يتحقق من عملٍ واحدٍ صالحٍ)، كرما ورأفةً ورحمةً بنا. فمثلًا، لم يُقيد الله ما هو العمل الصالح بأن يقول إنه مسحٌ باليد على شعر يتيم. وأيضًا لم يضع سبحانه شروطًا لطبيعة العمل الصالح أنه ينبغي أن يكون عملًا ثقيلًا أو شاقًّا، كالتصدق بوزنٍ كبيرٍ من الذهب. بل إنه تعالى وأفرد ولم يُجمِع أو يُحدد عدد الأعمال، مثل مائة من الأعمال الصالحة. لم يُضيِّق ولم يشُق الله علينا، حتى يكون باب التوبة مفتوحًا على مصراعيه ويسهل عبوره، وحتى يستطيعه كل الناس.

المُحَصِّلة هي أن الآية تشير إلى أن الله قد يجزي الذي ظلم نفسه ثم تاب وعمل عملًا صالحًا بأن يُبدل سيئاته حسنات، ولو لعملٍ واحدٍ صالحٍ بسيطٍ ولكنه أصبح عظيمًا عند الله لأن العبد يُقدِّمه له تعالى مع التوبة، وهذا شاق على النفس الأمارة بالسوء المُتمردة. وهذا خاصة لو كان العمل أيضًا صعبًا، كأن يفعل ضد المعصية، مثل رد الحقوق إلى أهلها، أو مقاومة شُركائه السابقين في الباطل. أو قد يكون عمل العبد فيه إخلاص شديد لله، أو تواضعٌ كبيرٌ، أو لصفاء قلب فاعله ورغبته الطيبة بالخير لمن حوله، فكل هذا يُعلي من قدر العمل عند الله. فحقًّا، إن الله ليقبل القليل، ولَيُعطي عليه الجزيل.

وهذا ليس ببعيد من الله، أن يفعل ذلك على عملٍ واحدٍ يسير صدر من العبد، فإن كرم الله ليس له حدود، ولا يمكن لنا أن نستوعب سعته. وقد ثبت في أحاديث شريفة ذكرناها أن رجلًا غُفر له لأنه سقى كلبًا ظمآن من بئرٍ، قد اغترف له في خُفِّه (هو مما يُلبس في القدم). وقد تجاوز تعالى عن عبد لم يعمل أي عمل صالحٍ، إلا أنه كان يعفو عن من يتعسر حاله في سداد الدين المالي له، فقال تعالى "نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ"[1]. وجاء عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) "بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِي طَرِيقٍ إِذْ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ"[2] (فَأَخَّرَهُ أي أبعده عن الطريق). فلا يستبعد المرء أن يُغفر له بعملٍ يستصغره، وربما أيضًا يُبدل الله سيئاته إلى حسنات، إلى حد أنه قد يبلغ الفاجر الذي ملأت ذنوبه السماوات والأرض، ثم تاب، إلى مرحلة أنه يفضل عن بعض المتقين عندما يُبدل الله تلك السيئات.

وذلك بحكمة الله، إذ قد يرى الله في قلب ذلك الفاجر التائب ما لا نراه نحن، فربما ذلك الفاجر ترعرع في بيئة المعاصي حتى ألف ذلك، ولكنه تخلى عن ذلك لله عندما كبر وتاب إلى الله توبة لو قُسِمت بين أمَّة لوسعتهم. فهناك من أسلم بالرغم من أن كل العوامل ضده، بينما نحن نشأنا في بيئة إسلامية ووجدنا أبوينا مسلمين والحمد لله. فمثلًا، إن سيدنا أبا ذر الغَفّاري كان من قبيلة تقطع الطريق على القوافل فتسرقهم وتقتلهم، وكان هو منهم، فلما سمع ببعثة رسولٍ في مكة، هجر قومه

---

[1] صحيح مسلم 2921.

[2] سنن الترمذي 1881.

وهاجر إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فأسلم وجاهد معه. وربما هناك من كان في نشأة أسوأ من ذلك.

ومنهم من قد يعود على المسلمين بمنفعة كبيرة بعد توبته بعمله الصالح، ما ليس بمتاحٍ لأحد غيره. ذلك مثل سيدنا نعيم بن مسعود (رضي الله عنه) الذي أسلم من صفوف الأحزاب الذين تكالبوا وحاصروا المسلمين في المدينة ليقضوا عليهم، وكان وضعًا شديدًا على المسلمين. فزرع الشك والخلاف بين الأحزاب وهم لا يعلمون أنه أسلم، حتى تفرَّقوا وانصرف كثير منهم فتلاشت قوة الأحزاب. فينبغي أن نضع في اعتبارنا أن لعل العاصي بلغ درجة من الفُجر تتقلص فيها احتمالية رجوعه عما هو فيه مثلًا. وهذا يكون بسبب شدة مشقة مقاومته لنمط حياته وتقويم نفسه التي ألفت المعاصي، وما على النفس من شدة التخلي عن وطنه أو عشيرته الذين يحثونه على المعصية، ومع ذلك تخلى وخرج من ذلك كله لله.

ويتجاوز تعالى عن الكثير والكبير من العمل السيئ لمن صدق مع الله، فيُعاقِب فقط على بعضها {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [الشورى 30]. فنحن نُدرك أن الله يتجاوز عن أغلب أخطائنا وتقصيراتنا، ولو آخذنا عليهم ما كنا لنجد أحدًا على وجه الأرض، لأننا جميعا كنا لنهلك من العقوبة على خطايانا، ولكانت المصائب تنهال على المرء الواحدة تلو الأخرى باستمرار. فالحمد لله الذي يتجاوز عن الكثير، ويؤجل علينا المحاسبة لعلنا نتوب فيمحو الذنوب، فيعفينا عن تحمل عقابها.

مثال آخر على عمل يسير هو تبسمك في وجه أخيك عندما تلقاه، فهو صدقة كما قال (صلى الله عليه وسلم) "كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِنْ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ"[1]. وفي رواية أخرى "تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنْ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنْ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ"[2] (وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ أي إعطاء أخاك الماء من وعائك). فالحمد لله على سعة رحمته وعفوه وكرمه، فهل نحن مغتنمون؟

ولعل أكثر موقف يُعبِّر عن مدى سعة الله في قبول التوبة، ويبين لنا مدى رأفته بنا، هي لواقعة عجيبة حدثت في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم). قال سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه): بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكْتُ! قال "مَا لَكَ؟" قال: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ [أي جامعها فأبطل صيامهما في رمضان]، فقال رسول الله

[1] سنن الترمذي 1893.

[2] سنن الترمذي 1879.

صلى الله عليه وسلم "هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟" قَالَ: لَا، قَالَ "فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟" قال: لَا، فقال "فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟ قَالَ: لَا. فَمَكَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ –وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ–، قَالَ "أَيْنَ السَّائِلُ؟" فقال: أنا، قال "خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ"، فقال الرجل: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا –يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ– أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي؟! فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ "أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ"[1] (وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ أي قُفَّة أو سَلَّة ضخمة؛ لَابَتَيْهَا يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ أي بين أطراف المدينة).

ومن الأعمال الصالحة هي الصلاة، خاصةً في جماعة المسجد. قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟"، قالوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال "إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ"[2]. إسباغ الوضوء على المكاره أي إتقان الوضوء عندما يصعب ذلك، مثلًا عندما يكون الماء باردًا في الشتاء. وانتظار الصلاة القادمة تشوقًا وتطلعًا أو تَصَبُّرًا هو من الأعمال الكبيرة عند الله، خاصةً لو كان ذلك الانتظار في المسجد. أما الرباط فهو حبس النفس على الطاعات المشروعة، وهناك رباط في الحرب بمعنى حراسة وحماية مكان ثغرةٍ في صفوف المسلمين.

ومن أهم خصال الرباط هو الصبر للمداومة على العمل، سواء في حراسة الجيش أم المحافظة على الصلاة، لأن العمل الصالح ينقسم إلى جزأين من جهة الصعوبة. الجزء الأول هو البدء في العمل الصالح، وهو نصف إتمام الأمر. وأما الجزء الثاني فهو الثبات، ولا يقل صعوبة عن البدء، بل غالبًا ما يكون أصعب من الابتداء.

ومغزى الرباط أنه بمنزلة الثبات على المبادئ لتعزيز شوكة هذا الدين ودفاعًا عنه من الحاقدين الكائدين، ولذلك كان أجره عظيمًا جدًّا. وإن لم نحافظ على صلاة الجماعة في المساجد مثلًا، سوف يتولى علينا جماعة، سواء من بني جلدتنا أم من غيرنا، يكرهون شعائر الإسلام فيمنعون الصلاة في المساجد بسلطتهم (وهذا من عقاب الله علينا لتفريطنا في تلك النعمة الغالية). فهل ننتظر أن تُمنع الصلوات في المساجد حتى نُدرك مدى أهميتها وقيمتها، وأوليس هذا جزاءًا عادلًا من الله لأننا فرَّطنا فيها؟

وقد رأينا في بلادنا تجسد ذلك بغلق بعض المساجد بين الصلوات، بل حتى وهدم بعض المساجد. وهناك من يخرجون علينا ويدعون إلى منع صلاة الفجر في الجماعة إذ إن مجالس علمية وتجمعات للإخوة تحدث بعدها، وذريعتهم هي أن هذا تهديدٌ لأمن الناس (وهي في الحقيقة تغيظ قلوبهم وتُهدد غاياتهم الخبيثة وتُعيق خططهم لهدم الإسلام). وهناك أيضًا تقييد يُفرض على بعض

[1] صحيح البخاري 1800.

[2] صحيح مسلم 369.

الصلوات مثل التهجد، أو الاعتكاف الذي يزيد هِمّة المرء على الصلاة ويرفع إيمانه. أما لو أن وفودًا من المسلمين تنطلق عند كل صلاة للمسجد، ما تجرأ هؤلاء الشياطين على منع مساجد الله من أن تُعمر ويُذكر فيها اسمه تعالى، وإن تجرَّأوا فلن يستطيعوا غلق المساجد، لما سيلقونه من بأس.

وتوضيحًا لموضوع الرباط سأقسمه إلى نقطتين، أولًا أن من حافظ على الصلاة في جماعة المسجد سَلِم من أغلب مكايد الشيطان، وكان بمنزلة المدافع عن دينه باستمرار ومجاهدًا لنفسه. كيف؟ إن الإنسان لا يسلم من كيد ووسوسة الشيطان، فكما جاء في كتاب الله {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا} [النساء 120]. يُضاف إلى هذا الحديث الشريف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ"[1]، أي معه دائمًا يملي عليه بالأفكار الباطلة والوسوسة بارتكاب المعاصي.

وطريقة من طرق منع الشيطان من التمكن هي بالالتزام بالصلاة في المساجد، مما حثنا عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ ثَلاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلا بَدْوٍ لا تُقَامُ فِيهِمْ الصَّلاةُ إلا قَدْ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ"[2] (تُقَامُ فِيهِمْ الصَّلاةُ أي في جماعة؛ الْقَاصِيَةَ هي الشاة التي تنفرد وتبتعد عن المجموعة، فيهاجمها الذئب لأنها انشقت عن القطيع فتكون صيدًا أسهل إذ لا يدافع عنها أحد). ومن العوامل الأخرى هي أن الصلاة تقهر النفس الأمَّارة بالسوء فتجعلها أكثر إنكارًا للمعاصي، خاصة بعد حمل النفس على تأديتها جماعةً في المسجد، وأن الذي يعبد الله في بيت الله تعالى بانتظام استحق وقاية الله من الشيطان. والمحصِّلة أن كل ذلك يجعل المرء أقل عصيانًا لله، مما يجعله يُقيم هذا الدين بتطبيقه، فذاك نوع من أنواع الرباط.

وبلا شك أن الانتظام صعب، ولذلك من غلب نفسه وشيطانه بالصلاة في المسجد بانتظام هو المجاهد للنفس، وهو من أصعب أنواع الجهاد. أما جهاد العدو فهو مبنيٌ علي جهاد النفس، فأنى تقهر عدوًا على الحق وقد فشلت في قهر نفسك الأمارة بالسوء؟ فلذلك سُمي رباطًا، لأن المصلي يحتمي بالصلاة في المسجد، أي ينتظرها ويترقبها ويرتب نفسه لحضورها في وقتها، كي يدافع بها عن النفس المشتهية للدنيا، ومن هجوم شياطين الإنس والجن. وبهذا يكون قد قطع سبيل الشيطان والنفس من أن يتمكنا منه، إذ إنه يُخالفهما.

والنقطة الثانية هي أن انتظار الصلاة، والشوق إليها، من علامات الإيمان كما جاء في القرآن {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [التوبة 18]. وفي الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) جاء "إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإِيمَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ

[1] صحيح البخاري 1897.

[2] سنن النسائي 838.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}"[1]. وجاء أيضًا عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، في حديثه عن السبع فئات الذين يظلهم الله يوم القيامة، قوله "وَرَجُلٌ كَانَ قَلْبُهُ مُعَلَّقًا بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ"[2] (ففيه إشارة على مدى حبه وشوقه للمسجد وملازمته للجماعة).

ونلاحظ في الحديث الأول وصف المعتاد للمساجد بالمؤمن وليس فقط بالمسلم، وهذا ثناء عظيم، لأن كل مؤمن مسلم، ولكن ليس كل مسلم مؤمنًا. والمؤمن أقل عرضة لعصيان ربه، كما تدل الآية التي تُنبئنا أن الله يقي المؤمن من الشيطان {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل 99]. من ثمَّ لا يرتكب المؤمن كبيرة من كبائر الذنوب بطبعه، فيكون ممن شملهم الله في رحمته {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم 32] (اللَّمَمَ هو ما دون كبائر الذنوب، ودون الفواحش الموجبة للحدود في الدنيا والعذاب في الآخرة).

ما أريد أن أصل إليه بعد هذا الشرح المستفيض هو أن المُجاهد للعدو يحتاج إلى قوة إيمان، مع عزيمة وقدرة على إعلاء كلمة الله. وكما نعلم أن استعمال الأسلحة يحتاج إلى تدريب، لأن التدريب يقلل من أخطاء استعمال السلاح ويزيد من نسبة إصابة الهدف، فكذلك حال انتظار الصلاة بعد الصلاة بالنسبة إلى الرباط مع العدو. هذا لأن من فوائد الصلاة في المساجد هي تنمية قدرة الصبر على الشدة، وتُقوي الإيمان، وتُعود الجسد على بذل الجُهد في سبيل الله.

وفي هذه الحالة، إذا حان وقت مواجهة العدو، يكون هذا العبد أقل عرضة للفرار من العدو، وأكثر صبرًا وتحملًا لظروف جهاد العدو والرباط (أي حراسة الأراضي من العدو). ذاك لأنه قوي الإيمان وقوي الجسد، معتادًا على مجاهدة النفس اختياريًّا، فيكون أكثر تحملًا ومثابرةً عندما تشتد مجاهدة النفس في صيغة محاربة أعداء الإسلام. ويجب لفت الانتباه إلى أنه كما تحتاج محاربة العدو تدريبًا بدنيًّا، فإنها تحتاج إلى تدريبٍ نفسيٍّ أيضًا، ويكون هذا عن طريق خوض الشدائد.

وكما ذكرنا، رباط الصلاة كالتدريب للرباط ضد العدو، وإن لم يكن هناك جهاد بالسلاح فهو كالدرع نحافظ به على الإسلام من هجوم غير المسلمين، ما بين الغزو الفكري والطعن في الدين بألسنتهم وأفعالٍ ماكرة مثل مُحاولة إغراء المسلمين بشهوات الجسد؛ فالصلاة فعليًّا هي عمود الإسلام كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم). والمداومة على الصلاة ترفع من قوة التحمل، وهذه بعض الصفات التي يكتسبها المرء وليس كلها، لأن هذا العبد تعلو قوة إيمانه كليًّا بما تشمل، فيكون مُقبلًا أكثر على الجهاد وأقل خوفًا من الموت.

---

[1] مسند أحمد 11300، صححه السيوطي ولكن ضعفه الألباني والأرناؤوط.

[2] سنن الترمذي 2313.

ولهذا يجب أن أحُث نفسي وأجاهدها على الصلاة في المسجد، لأن هذا يقلل من ارتكابي للمعاصي ويمحو الذنوب المرتكبة، وهذا هو الفوز الحقيقي على الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء. الحمد لله الذي وهب لنا أعمالًا تعيننا على الشيطان والنفس، والحمد لله الذي دلنا على أعمال تجلب مغفرته ورحمته، والحمد لله الذي يغفر لنا ويعفو عنا، ولولا تلك الصفات لهلكنا، فالحمد لله الذي أتاح لنا أعمالًا ودلنا عليها يجتمع فيها كل الخيرات. فهل أُفَرِّط في هذه الأعمال؟! وإن فرَّطت فيها، ما الذي أريده أكثر من هذا؟ وكيف سيكون رأيكم فيَّ، وما الجزاء الذي تروني أستحقه؟

ثم إن صلاة الفرائض في أول وقتها هي من أحب الأعمال إلى الله، وذلك يُحققه المرء بسهولة عندما يواظب على صلاة الجماعة في المسجد. سأل سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) نبي الله (صلى الله عليه وسلم): أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قال "الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا"، قال: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال "ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ"، قال: ثُمَّ أَيٌّ؟ قال "الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[1]. ومن البديهي أن المرء إذا فعل أكثر شيء يُحبَّه الله، فإن ذلك أدعى أن يغفر الله للعبد ويُكافأه بأحب الأمور إليه. ومن هذا الحديث نستطيع أن نستنتج أن من يُحب الله حقًّا يُحافظ على الصلاة في أول وقتها، إذ يتلهف لتقديم إلى الله أكثر أمر يُحبه تعالى، وعلى أكمل وأحسن وجه، بأن يُدرك التكبيرة الأولى في جماعة المسجد، بل يأتي مُبكرًا وينتظرها، وفي الصفّ الأول إذ إن الملائكة تستغفر للذين في الصف الأول.

وفي سياق موضوع بر الوالدين الذي تداوله الحديث، لا يليق أن نغفل عن ذكر هذا العمل الصالح الذي هو من أهم وأفضل الأعمال الواجبة، والذي يُكفِّر الخطايا. يروى أن رجلًا أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا، فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ "هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟"، قال: لَا؛ قَالَ "هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟" قال: نَعَمْ؛ قال "فَبِرَّهَا"[2]. هذا في حق الخالة، والتي هي بمنزلة الأم كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فما بالنا في بر الأمّ؟ هذا بالإضافة إلى المرتبة العالية من الثواب على بر الوالدين، والذي هو أفضل من جهاد العدو كما دل حديث أحب الأعمال إلى الله.

عودةً لموضوع الصلاة، بالطبع لا ينبغي أن ننسى صلاة الثلث الأخير من الليل، والذي يدعونا فيه الله أن نُقبل عليه. ووعدنا تعالى بالاستجابة لحوائجنا كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ"[3] (شَطْرُ هو النصف). فمن المُغتنم؟

---

[1] صحيح البخاري 496.

[2] سنن الترمذي 1827.

[3] صحيح مسلم 1263.

عامةً، إن الصلاة هي أهم العبادات عند الله، ولكن ليس الأمر متعلقًا فقط بأداء الواجب، فإن الصلاة (بما فيهم النوافل) تعود على العبد بالفوائد الكثيرة، مثل منع العبد من المنكرات والتقرب من الله. ومن فوائدها سكون النفس، لاسيما بعد معصية الله لِما يعقب العصيان من اضطرابات وأحزان عند العبد. وقد كانت الصلاة محل قُرَّة عين ومصدرًا للراحة بالنسبة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، إذ قال فيها "حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ"[1]. وكان يقول (صلى الله عليه وسلم) "يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا"[2]؛ ونبأنا سيدنا حذيفة (رضي الله عنه): كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى[3] (حَزَبَهُ أي اشتد عليه وأحزنه).

وينبغي ألا يتيه عنا أن الصلاة، وما يتعلق بها من استعدادات مثل الوضوء والتسوُّك والتَطَّيُب والمشي إلى المسجد وانتظار إقامة الصلاة في المسجد، تمحو الخطايا عامةً. فالصلاة أشبه بالنهر الجاري المتواصل لمن أراد أن يغتسل من ذنوبه، كباب التوبة المفتوح دائمًا من الله لمن أراد أن يعبر منه. فما الذي نريده بعه كل هذه الرحمة والكرم من الله، فإن هناك من لا يتخلى عن هذا الفضل؟

وعملٌ صالح آخر فائق هو الجهاد. الجهاد له شُعب، مثل جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد المنافقين وجهاد الكافرين. والجهاد في سبيل الله إثباتٌ عمليٌ لله على بذل النفس من أجله، مما يجعل الله يعفو ويغفر للعبد. قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصف 10-12].

فتلك إحدى السُبُل للتخلص من الذنوب التي تراكمت، والحمد لله الذي أرشدنا إلى كيفية طلب المغفرة، ثم يقبل الاستغفار، ويستبدل العذاب ليس بسلامة العبد وحسب، بل بالمكافأة أيضًا! فمن الذي لا يبادر لتلك الصفقة؟ قال تعالى {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة 111]. قال أحد الصالحين: يا لها من تجارة رابحة، أنفُس هو خلقها، وأموال هو رزقها، ثم بعد ذلك نردها إليه ويعطينا الجنة؟! ولكن العبرة في ذلك، أن المرء يهب نفسه وأمواله لله طوعًا وإقبالًا، وليس جبرًا أو رياءً، فهلم بنا نعقد النية والاستعداد على الأقل؟

---

[1] سنن النسائي 3878.

[2] سنن أبي داود 4333.

[3] سنن أبي داود 1124.

ومن المهم أن يُحدِّث المرء نفسه بالجهاد في سبيل الله ولو لم يستطع، ذلك لأنه قد ينال منزلة الشهيد مع أنه لم تُتَح له فرصة القتال في سبيل الله. هذا كما نبأنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ"[1]. وقد ذم سيدنا خالد بن الوليد (رضي الله عنه) مَن يموت على فراشه جُبنا عن الجهاد. والعجيب في الأمر أنه قال ذلك لأنه حزن أن جاء أجله على فراشه، بالرغم من رغبته الشديدة وسعيه المتكرر لنيل الشهادة على أراضي المعارك. تحسر على ذلك وقال باكيًا: لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا زَحْفًا، وَمَا فِي جَسَدِي شِبْرٌ إِلا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ رَمْيَةٌ بِسَهْمٍ، وَهَأَنَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي حَتْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ الْعِيرُ، فَلا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ[2].

والسؤال المنطقي هو: كيف تصل نية الجهاد وحدها إلى درجة أنها تُكَفِّر الذنوب؟ الإجابة هي، دون النظر إلى أن الجهاد من الأعمال الصالحة التي تمحو السيئات، أن الذي يصدق مع الله في نية الجهاد قد ينال مرتبة الشهادة، فيكون مثل من استُشهِد فعليًّا كما في الحديث المذكور عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) آنفًا. والشهيد قد يُغفر له كل إسرافه على نفسه!

ما يدل على أن النية الصادقة للعمل الصالح، دون الاستطاعة على تنفيذه، كالذي أتمَّه بالفعل جاء في الآية {مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلا إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُون} [التوبة 120-121]. وهذا ما أكَّد عليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا لمن معه من المجاهدين عن الذين حُبِسوا عن غزوة تبوك -وكانوا يتمنون الذهاب معه- "إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلّا كَانُوا مَعَكُمْ" قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟! قَالَ "وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ"[3].

واستكمالًا للنقطة الأصلية، فإن الدليل على أن الشهيد يُغفر له إسرافه في الدنيا هو فيما يُروى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قام في الصحابة فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ"؛ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كَيْفَ قُلْتَ؟"، قال: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ

---

[1] صحيح مسلم 3532.

[2] سير أعلام النبلاء لمحمد الذهبي 382/1.

[3] صحيح البخاري 4071.

اللَّهِ أَتُكَفِّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إلا الدَّيْنَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلام قَالَ لِي ذَلِكَ"[1].

أي أن المجاهد الذي يصبر ويحتسب الأجر، مُقبلًا على الجهاد وليس مُفرًّا من العدو فيُقتل، تُرفع عنه كل الأعباء مثل الذنوب، إلا الديون التي عليه. وهذا فيه إشارة على مدى أهمية قضاء الدّيون، فليتحلل كل منا من مظلمته تجاه الناس ويرد إليهم حقوقهم وأموالهم. فهذا سبيل من السبل للتخلص من الذنوب، فلينوي كل واحد منا أنه إذا أُتيحت له فرصة الجهاد فهو سيغتنمها، وليصدق في النية، وبقي الدَين أن يرده المرء، مع العلم أن من الدَين مظالم الناس التي على المرء، فلنتقِ الله ولنتنزه عن ظُلم الناس.

ودليلٌ آخر هو الحديث "الشُّهَدَاءُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَلِكَ الَّذِي يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ أَعْيُنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا (وَرَفَعَ رَأْسَهُ حَتَّى وَقَعَتْ قَلَنْسُوَتُهُ؛ قَالَ أحد الرواة وهو ينقل الحديث عن الراوي الذي قبله: فَمَا أَدْرِي أَقَلَنْسُوَةَ عُمَرَ أَرَادَ أَمْ قَلَنْسُوَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ جَيِّدُ الإِيمَانِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَكَأَنَّمَا ضُرِبَ جِلْدُهُ بِشَوْكِ طَلْحٍ مِنْ الْجُبْنِ، أَتَاهُ سَهْمٌ غَرْبٌ فَقَتَلَهُ، فَهُوَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ؛ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَلَطَ عَمَلا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ، فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ؛ وَرَجُلٌ مُؤْمِنٌ أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ لَقِيَ الْعَدُوَّ فَصَدَقَ اللَّهَ حَتَّى قُتِلَ فَذَلِكَ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ"[2] (طَلْحٍ هي شجرة عظيمة من شجر العضاة؛ غَرْبٌ أي طائش لا يعرف من رماه، والمعنى أنه خاف ولكن لم يفر، وقُتل لمُحاربته أعداء الله).

ففي الحديث إشارة إلى أن المنزلة الرابعة من الكرامة تكون للشهيد الذي أسرف على نفسه في المعاصي، وبما أن له منزلة تكريم فهذا يعني أنه غُفر له، بالرغم من اختلاف المنازل بينه وبين التقي. ولكن ينبغي التنبيه على أن من شروط الصدق في النية مع الله هي ألا يتعمد استغلال سعة كرم الله ولا المكر بتشويه مقصد الحديثين، إنما يمنح الله ذلك الكرم الواسع (مرتبة الشهادة بناء على النية دون المقاتلة) لمن تواضع ولم يغتر ولم يكمن في نفسه الخبث في صيغة المكر، وهذا تم تداوله في جزء: في لحظات صدق مع النفس.

والكرامات الممنوحة للشهيد لا يمكن وصفها قدر حقها، إلا أن للرسول (صلى الله عليه وسلم) أعطانا مؤشرًا عن عظم تلك الكرامات وشرف الاستشهاد. وهذا عندما قال "مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنْ الْكَرَامَةِ"[3].

---

[1] صحيح مسلم 3497.

[2] سنن الترمذي 1568.

[3] صحيح البخاري 2606.

إن الشهيد يرى من الكرامات ما لم تكن تجلبه له أعماله إلا بالشهادة في سبيل الله، ولكن قد يبلغ العبد من عصيان ربه إلى أن يَحرِمه الله من الشهادة. أما من كتبت له الشهادة فإنه يُغفر له ويكرم كرامة تعتز بها نفسه، فيريد أن يكرر الشهادة ليخوض هذه الكرامات تكرارًا ومرارًا، وليُري الله كم هو مستعد للتضحية بنفسه من أجله. ومما لا شك فيه أن من دخل منا الجنة لن يريد العودة إلى الدنيا لسببين، أولهما بالطبع عدم الرغبة في التخلي عن متاع الجنة لخوض مرحلة شاقة من حياته، والثاني هو أن لا أحد يريد أن يخاطر بنفسه مرة أخرى خوفًا من أن يُفتن في الدنيا فتكون أعماله أسوأ مما كان عليه.

هذا بالإضافة أن من يدخل الجنة يُنزَّه من أن يعصي الله، وكلنا أصبنا من المعاصي في الدنيا، فمن الذي يريد أن يرجع إلى حالة معصية ربه بعد أن عافاه الله منها؟ فإن الشخص إذا اهتدى يحزن على نفسه قبل الهدى، وعلى ما فرَّط من الثواب، وعلى ما جمع من معاصٍ تُلطِّخ كتاب أعماله الذي سيحاسب عليه، ويندم على ما سببه من أضرار وأذية لمن كان حوله. هذا بالإضافة إلى أنه ينقبض حين يتذكر كم كان في ضلالٍ وذُلٍ وسفاهةٍ عندما كان عاصيًا، ويخجل من تلك فترة من حياته.

وهذا حال المؤمن عامة، إذ إنه يكره أن يعود إلى سابق عهده من عصيان الله. وتلك الصفة هي نفس صفة المؤمن الذي يكره العودة إلى الكفر التي أشار لها النبي (صلى الله عليه وسلم) في قوله "ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ"[1]. فمن صفات المؤمن أنه شديد النفور من العودة إلى الضلال عامةً بعد الهدى.

فمن الذي يريد أن يرجع إلى الدنيا ومعاصيها بعد أن أصلحه الله واستقام تمامًا؟! كذلك أصحاب الجنة، فإنهم يتحسرون على الأوقات التي لم يذكروا الله فيها لما فاتهم من القرب إلى الله والدرجات في الجنة، فما بالهم بالأوقات التي مضوها في معصية الله؟ فكما جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "لَيْسَ يَتَحَسَّر أَهْلُ الْجَنَّةِ إلا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لَمْ يَذْكُرُوا اللَهَ تَعَالَى فِيهَا"[2]. ولكن أقول أن ربما الشهيد لا يندم لأنه يرجو أن يعود للدنيا ويُختم له في الدنيا كما خُتم له من قبل بالشهادة في سبيل الله، أو ربما لأنه يريد أن يخوض تلك الكرامات التي يهبها الله له ثانيةً، والله أعلم. هذا مع التوضيح أن هناك علماء قالوا إن أهل الجنة –وهم في الجنة– لا يتحسرون على أي شيء لأنها دار المتاع والصفاء، ليس فيها شقاء، وإنما يتحسرون قبل دخول الجنة؛ أي أنهم

---

[1] صحيح البخاري 20.

[2] البدور السافرة للسيوطي 475، قال عنه: إسناده جيد.

أصحاب الجنة ولكن يتحسرون على أوقات أضاعوها بعدم ذكر الله في أثناء ما هم في القبر ويوم القيامة والحساب وعبور جسر جهنم.

وإجمالًا لما للشهيد من كرامات، قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيُرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنْ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ مِنْ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ"[1] (وَيُجَارُ أي يُنقذ أو يُوقَى).

الصيام عملٌ آخر يُطهر العبد من ذنوبه. وهناك أيام مُحددة الصيام فيهن له أثر أكبر في محو الذنوب. ذلك مثل صيام يوم عرفة الذي سُئل عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال "يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ وَالْبَاقِيَةَ" (وَالْبَاقِيَةَ أي القادمة)، وسُئل عن صيام يوم عاشُوراء فقال "يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ"[2]. يوم عرفة يوم خاص، يزيد الله من شمل عباده المغفور لهم في ذلك اليوم، سواء الواقف على جبل عرفة للحج أم من خارجه، فقد نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنْ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمْ الْمَلَائِكَةَ فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟"[3].

وصوم رمضان أوسع من ذلك في محو الذنوب بالرغم من كونه فريضة على المسلم، مثل الصلوات. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ"[4]. فمن صام رمضان وهو يؤمن أنه حقٌ لله، واحتسب الثواب عند الله فصبر على مشقته، يُغفر له ذنوبه التي مضت.

وبالطبع، لا ينسى أحدنا أثر الحج على الذنوب، إذ إنه يمحو الذنوب من صحيفة العبد إلى درجة أنها تكون بيضاء كيوم تقييضها به وهو لم يعمل أي عملٍ بعد: يوم ولادته. قال حبيبنا (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"[5]. وعن الحج قال أيضًا "تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ"[6] (يَنْفِيَانِ أي يُزيلان؛ الْكِيرُ هو ما ينفخ فيه الحدّاد لإشعال النار

---

[1] سنن ابن ماجه 2789.

[2] صحيح مسلم 1977، جزء من الحديث.

[3] صحيح مسلم 2402.

[4] صحيح البخاري 1875.

[5] صحيح البخاري 1424.

[6] سنن الترمذي 738.

لتنقية المعادن من الشوائب؛ الْمَبْرُورَةِ أي الْحَجُّ الَّذِي وُفِّيَتْ أَحْكَامُهُ فَوَقَعَ مُوَافِقًا لِمَا طُلِبَ مِنْ الْمُكَلَّفِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ).

ولكن الحج، بسعة رحمة الله، ليس العمل الوحيد الذي له ذلك الأثر، فقد عدد لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) الوسائل لمحو الذنوب تمامًا. فمنها أنه نبأنا عن سيدنا سليمان بن داود (عليهم الصلاة والسلام جميعا)، بعدما بنى بيت المقدس، أنه دعى من الله أن "لَا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ، لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ فِيهِ، أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"[1] (يَنْهَزُهُ أي يخرج بالنية تلك).

وفي حديث له قال (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ. فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِلَّهِ إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"[2]. وأجاب (صلى الله عليه وسلم) عندما سُئل عن الكفَّارات والدرجات قائلًا "الْمُكْثُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَالْمَشْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكَارِهِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ عَاشَ بِخَيْرٍ وَمَاتَ بِخَيْرٍ وَكَانَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ"[3].

عامةً، إن الفرائض الراتبة مثل الصلوات الخمس اليومية، وصلاة الجمعة، وصوم رمضان، يُكفِّرن للعبد ما يصدر منه من الذنوب ما دام العبد يجتنب كبائر الذنوب. قال (صلى الله عليه وسلم) "الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ"[4]. فالمسلم له أبوب كثيرة تغسل عنه الذنوب بها، فهو في واقع الحال تحت غطاء عدة عمليات لتطهيره من ذنوبه.

توضيحًا للقارئ وإلمامًا بقضية العمل الصالح –وأريد التنبيه على أن ما سأذكره الآن هو اجتهادي الشخصي فقد يكون به أخطاء–، من ظاهر الأدلة هو أن العمل الصالح عامةً يُكفِّر الذنوب، وأبوابه كثيرة، ولكن أعلاهم منزلة هي الصدقة كتكفير للذنوب. وأعلى الصدقات منزلةً هي التي محورها المال، ولو كان التصدق بشيء يوازي قيمة مالية مثل الطعام، الذي يُنفق عليه لتحصيله. واستناد هذا الكلام هو من الآيات {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ

---

[1] سنن النسائي 686، جزء من الحديث.

[2] صحيح مسلم 1374، جزء من الحديث.

[3] سنن الترمذي 3157، جزء من الحديث.

[4] صحيح مسلم 344.

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} [آل عمران 133-136]. فقد بدأ الله سُبُل جلب مغفرته بالإنفاق في اليُسر والعُسر.

ويؤيد كلامي هذا أكثر واقعة يرويها لنا سيدنا عبد الرحمن بن سَمُرَةَ (رضي الله عنه) قائلًا: جَاءَ عُثْمَانُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي كُمِّهِ حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَيَنْثُرُهَا فِي حِجْرِهِ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَلِّبُهَا فِي حِجْرِهِ وَيَقُولُ "مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ" مَرَّتَيْنِ[1]. ففي هذا الموضع تم الجمع بين الصدقة الكبيرة وبين أنها لجهادٍ في سبيل الله، في وقت نشأة الإسلام وضيق الموارد أيضاً، فكان سببًا في أن يكون لسيدنا عثمان (رضي الله عنه) منزلةً أنه سيُكفَّر عنه ويُغفر له ذنوبه التي قد يفعلها في المستقبل. وإني لم أطَّلع على دليل لعملٍ بلغ أنه يُكفِّر عن العبد ذنوبه إلى أن يموت إلا هذا، والله تعالى أعلم.

وقد يتساءل أحدنا، إن كان الاستغفار أو التوبة تمحو الذنوب، فما الداعي في أن يُقبِل العبد على العمل الصالح لمحو ذنوبه؟ الإجابة هي أن الأسباب متعددة، منها أن المرء قد ينسى الاستغفار على ذنب له فيحل العمل الصالح مكانه كعامل أمان، وهذا شبيهٌ بوضع صلوات النوافل مع الفرائض. منها أيضًا أن العبد النادم المُستبعد أن يُصلح ما تسبب به من فساد ولكنه يصدق في رغبة التخلص مما ارتكبه، فإنه بطبيعته يتلهف على كل عاملٍ قد يمحو أثر فعلته، مثل المريض الذي يذهب لكل من قد يُعالج داءه. ومنها أن مع كثرة الاستغفار والأعمال الصالحة تكثر فرصة العفو، وذلك يستشعره خاصةً من يرى أن ذنبه عظيم، فيُكثر من الأعمال الصالحة لمحوها، شبيها بالذي يتوسخ بقذارة لزجة، فقد يغسلها عدة مرات وبطرق شتى.

ووصايا عامة للقارئ حول موضوع العمل الصالح، وهي أن عمله ينبغي أن يكون خالصًا لله (أي يخلو من الشوائب في النية مثل الرياء) وصحيحًا (أي أن يكون موافقًا لسُنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم) حتى يَقبَله الله. ويرتقي العمل عند الله إذا تواضع العبد وهو يُقدِّم العمل لله، فيرى عمله صغيرًا في جنب عظمة الله وفضله، ولا يفتخر بالعمل إذ إن الله هو الذي أرشده ووفَّقَه أن يُتِمَّه. وهناك منهج عام وصفات عامة قد يُمارسها العبد فيُعلي من فرصة مغفرة الله له بدرجة فائقة، مثل أن يكون عفوًّا مُسامحًا مع من أساء إليه من الناس (بما لا يضر بالإسلام)، كما دلت آية سورة آل عمرن التي ذكرناها قريبًا عن سبُل نيل مغفرة الله، ففيها {وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}.

[1] سنن الترمذي 3634.

وهذا مبدأ عام، أن تعامل الناس والحيوانات والحشرات والنباتات كما تُحب أن يُعاملك الله. فكن رحيمًا يرحمك الله، وكن عفوًّا يعفو عنك الله، وكن كريمًا يُكرمك الله، وكن ناصرًا للمظلوم ينصُرك الله، وكُن مُحسنًا يُحسن الله إليك أكثر من إحسانه العام مع مخلوقاته، استنادًا إلى حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "ارحموا تُرْحَمُوا، واغفِروا يُغْفَرْ لكُم"[1]، وأن المُكافأة تكون من جنس العمل مبدئيا. وفي الآية التالية لفتة عجيبة {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة 237]، فما الصلة بين تنازل العبد عن حقِّه وبين أن ذلك أقرب لتقوى الله؟! الصلة هي أن تقوى الله معناها الوقاية من عذاب الله، ومن يعفو عن الناس ويتنازل عن حقوقه الشخصية للتفضل على مخلوقات الله قد استحق المعاملة بالمثل من الله، أي أن الله يتجاوز عن حقوق له على العبد فيعفو عنه، ومن ثمَّ يتفادى العبد دخول النار.

وختامًا لهذا الفصل، بشرى لكل متلهف على معرفة بيقين إن كان الله قد غفر له أم لا، فهناك عملٌ خاص وبسيط قد وعدنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) لمن يعمله أن يغفر الله له معصيته التي تُؤرِّقه. ذاك العمل هو "مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ"، ثم تلا {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[2]. فالحمد لله الذي جعل لنا مخارج من الأزمات التي نضع أنفسنا فيها.

الصبر على البلاء مع شكر الله

إذا أراد الله أن يُطهِّر عبدًا من ذنوبة، فإن الله يبتليه. هذا كما دل حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[3].

ولكن، ينبغي أن يُدرك المرء أنه ينبغي له أن يصبر على البلاء ويحتسب الأجر عند الله، وإن حمد الله كان ذلك أعظم له في الفائدة والأجر. يُروى أن شداد بن أوس (رضي الله عنه) ذهب مع أناس ليزوروا أخًا لهم مريضًا، فدخلوا عليه وقالوا له: كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟ قَالَ: أَصْبَحْتُ بِنِعْمَةٍ، فَقَالَ لَهُ شَدَّادٌ: أَبْشِرْ بِكَفَّارَاتِ السَّيِّئَاتِ وَحَطِّ الْخَطَايَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ

---

[1] صحيح الترغيب للألباني 2465.

[2] مسند أحمد 53.

[3] سنن الترمذي 2319.

مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنْ الْخَطَايَا؛ وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا قَيَّدْتُ عَبْدِي وَابْتَلَيْتُهُ، وَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ"[1]. وَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ أي قائلًا للملائكة أن يكتبوا له مثل ما كان يعمل من الصالحات من قبل أن يمرض، فلا ينقص من أجره بسبب مرضه الذي أضعفه عن العمل الصالح.

أما الذي لا يصبر، الذي هو بين السخط والتذمر والاعتراض على قضاء الله، فهو يوشك أن يُبطل المغزى والفائدة من ذلك الابتلاء. قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ"[2]. فتلك الفعلة، السخط والشكوى، شبيهة بالذي يَمُنّ على من يتصدق عليه، أو الذي يعمل عملًا طيبًا ثم يُرائي ويتباهى به أمام الناس.

---

[1] مسند أحمد 16496.

[2] سنن الترمذي 2320.